أزمة ثقافة.. ومثقفين

د . عبـــاس الجـــرارى .

ملخص المحاضرة التى القاها عباس الجرارى بنادى النطاق الثقافى فى مكناس بدعوة من فرع اتحاد الكتاب وجمعيـــة البعث الثقافى وفى اطار موسمهما المشترك لعام 1974 .

تعتبر الثقافة من حيث تركيبها ومكانه فى المجتمع بنية فوقية لـــه او هى احدى بنياته الفوقية . وهى مع ذلك غير منفصلة عن البنيات التحتية التى تساهم بقوه وفعالية فى تكوينها وتزويدها فى اخصاب واغناء يطبعانها ويحددان ملامحها ، انطلاقا من تفاعل وتصاهر تنشأ عنهما علاقة جدلية تلقائية تربط الثقافة بمختلف البنيات المكونة لها ، وتولد فيها طاقـــات وامكانيات وقدرات تستطيع بها ان تكون خلاقة وفعالة وفى ايجاب على الدوام . واذا كانت هذه السمات التى تحدد دور الثقافة ، فهى من قبـــل ومن بعد تحدد طابعها المميز لها والذى يجعلها بنية تكـــاد ان تكـــون لا فوقية ولا تحتية ، فضلا عن ان تكون انعكاسا مباشرا لغيرها من البنيات. والثقافة ــ حتى وهى تكتسى هذه الملامح ــ لا يمكن فصلها عن المجتمع الذى يبادلها التأثر والتأثير بواقعه وما يعتمـــل فى هـــذا الواقـــع مـــن حركيـــة وتجـــدد .

ولو نحن نظرنا الى مجتمعنا لكشف لنا واقعه عن انماط متداخلة ، وهى على تداخلها متباينة فى اشكالها متنافرة فيما لها من معطيات اقتصادية واجتماعية بكل ما فى هذه المعطيات من ابعاد تنسحب آثارها على مختلف ظواهر المجتمع ومظاهره .

وليس من شك فى ان هذا التباين معزو الى الخط الذى سار فيه التطور الطبقى فى المغرب ، وهو خط يبدو منحرفا وبعيدا عن الطبيعـــة والوضوح . وهذه حقيقة خلفت نوعا من عدم التماسك الاجتماعى لم يلبث ان انتج تحولا لصالح طبقة معينة .

من هذا المنظور فى التحليل يمكننا ان نسجل ان واقع ثقافتنا يعانى مـــن ظاهـــرتيـــن :

الاولى : اجترار كثير من الترسبات التى تراكمت فى فترات الانحطاط وعلى عهد الاستعمار ، والتى كان ممكنا — رغم تجذرها — ان تستأصل لو ان الذين قاموا على شؤون التعليم والثقافة غداة الاستقلال لم يستهينوا بها وعالجوها بجدية وموضوعية ، بعيدا عن التهريج الذى افضى فى النهاية الى اضافة تراكمات اخرى زادت فى تعميق موطن الداء ، وزادت بالتالى فى ازمانه واستفحاله . وكان طبعيا ان تتيح هذه الظاهرة سيادة الفكر التقليدى — والجانب البالى والجامد منه خاصة — بكل ما فى هذا الجانب من بعد عن العلم والعقل والحرية والابداع ، وبكل ما فيه كذلك من تزييف للقيم الوطنيـــة والانسانيـــة .

الثانيـــة : وهى مترتبة على الاولى ، وتتمثل فى موقف ابناء جيـــل بل اجيال ما بعد الاستقلال من هذا الفكر وتنكرهم له ورفضهم لاشكاله ومضامنيه . وهم فى هذا او بعضه — على حق ، طالما ان هذا الفكر لا يسعفهم فى تطلعاتهم ولا يستجيب لما يعتمل فى عقولهم وقلوبهم من دوافع وحوافز لمعايشة العصر والتفتح على المستقبل . وكان نتيجة لهذا الموقف ان اخذوا — بحثا عن البديل — يلتقطون اى شىء يصادفون ، وبـــداوا يكتشفون الوانا فكرية كثيرة ، جذابة فى اغلبها ، مغرية بالاقبال عليهـــا بما تتضمن من مفاهيم ونظريات ومناهج ، وبما تفتح لهم من آفاق وبما تبعث فى نفوسهم من نوازع التمرد على كل انواع الوصايه والتحكم . وهم فى نشوتهم بذلك لا يلتفتون الى ما قد يكون فيها من دس وتحريف وتسميم او فرض الهيمنة فى احسن تقديم ، بل هم عاجزون عن ادراك شىء من ذلك ، وهم ما زالوا فى مراحل التكوين الاولى ، لم تتيسر لهم بعد وسائل مثل هذا الادراك . ولم يكن غريبا — والحال كذلك — ان تنشأ فوضى فكرية تمثلها اتجاهات كثيرة جديدة ، ولكنها غير واضحة ولا متبلورة حتى فى اذهان اصحابها الاخذين بها فى انحياز وحماس .

من هنا تصبح الحاجة ماسة الى فكر ينهض بدورين :

اولهما : توضيح هذا الوضع وتنظيره بموضوعية وعلمية .

والثانى : طرح بديل للفكر المزيف .

ويكاد الدور الثانى يستأثر بكل الاهمية ، نظرا لان ظهـــور ثقافـــة جديدة — فى المناخ الذى عرضنا — يصبح فى غاية الضرورة والالحاح ، ليس فقط لان هذه الثقافة ستكون بديلا ، ولكن لانها ستكون كذلك المحور الذى يمكن ان تأتف حوله الجماهير . واذا ما تسنى لها ذلك فانها ستستطيع ان تلعب دورا ايجابيا فى المجتمع لاستقطاب طبقاته والالتحام معهـــا فى بوتقة يمكن ان تساعد على طرح المشاكل واستيعابهـــا عاطفيا وعلميا والبحث لها عن حلول .

واذا كان الامر من حيث مبدأ هذه الثقافة لا يثير اى خلاف ، فانه

من حيث ماهيتها يثير كل الخلاف . ويمكن حصر الاراء فى هذه النقاط :

1 ــ التراثيون السلفيون وهم الذين يقتصرون على التراث العربى الاسلامى فى تعصب وتقديس .

2 ــ التراثيون الغربيون وهم يقتصرون على نوع آخر من التراث ، يتعصبون له ويقدسونه ، سواء منهم من يدعو الى نقل الفكر الليبرالى او من يدعو الى تبنى الفكر الماركسى .

3 ــ الرافضون لكل انواع التراث والداعون الى البدء من الصفر ، وموقفهم لا يقل سلبية عن الموقفين السالفين ، لانه يعنى الابداع الكلى وتصفية النفس تاريخيا وحضاريا ، ورفض الذات الوطنية والقومية والانسانية .

4 ــ الانتقائيون اى الذين يرون ضرورة خلق ثقافة وطنية بأخذ الجيد الايجابى من التراث العربى الاسلامى ومن كل الثقافات ، مع اعتبار الواقع والحاضر واتخاذهما بعدا فى الانطلاق .

والحق ان الحديث عن هذه الاراء اصبح غير ذى جدوى بعد ان تكرر وطال ، وبعد ان لاكته الالسنه والاقلام ، واصبحت الدعوة الي ثقافه وطنيه امرا يكاد يلتف حوله الاجماع ، وان شغل المنظرون لهذه الثقافه ببعض تكلياتها دون الخوض فى فحواها وتناولها فى العمق . وقد سبق لى ان بحثت فى موضوعها بشىء غير قليل من التفصيل ، حيث تناولت فى دراسات منشورة تركيبتها الممكنة وخاصه من حيث الاستفادة من تراثنا الحافظ على خصوصيتنا واصالتنا الموضوعيه ، ومن حيث اقتباس مختلف مظاهر النهضه الثقافيه والحضاريه دون الوقوع فى التبعية لهيمنتها ، وانتهيت الى انه لا بد لثقافتنا من ملامح تتيح لها التجدد والاستمراريه ، وتقتضى ان تكون :

1 ــ اصليه 2 ــ معاصرة 3 ــ واقعية 4 ــ انسانية
5 ــ ابداعية 6 ــ علميه 7 ــ عمليه 8 ــ جماهيرية
9 ــ مسؤولة 10 ــ حرة 11 ــ ثورية 12 ــ عقديه .

هذا جانب من الازمة ، اما الجانب الثانى فهو : من ينهض بهذه الثقافة ؟ والجواب يبدو بسيطا لا يستدعى طرح السؤال ، على اعتبار ان المثقفين بحكم انتسابهم لها مهيأون لهذا الدور . ولكن الحقيقة ان هؤلاء المثقفين اصبحوا بواقعهم ومواقفهم يشكلون قضية اساسية من قضايا الواقع المغربى ، لا شك انها تحتاج الى مناقشة وحل حتى لا تهدر طاقاتهم وحتى يكونوا ايجابيين .

وتتشعب هذه القضية الى جوانب متعددة : مادية ونفسية وفكرية وتنظيمية . اما الجانب المادى فيتمثل فى الوضع المزرى الذى يعيشونه بحكم انتماء معظمهم لاسرة التعليم ، وهى اسرة مقهورة ، سواء فى تأطير

الوظيفة العمومية او فى اعتبار المجتمع الذى اصبح لا ينظر ولا يقوم الا من خلال مقاييس مادية صرف ، ثم بحكم لا مردودية العمل الذى يقدمون، سنواء فى مجال البحث العلمى او الانتاج الابداعى او غيرهما من مجالات النشاط الثقافى التى ما زالت تقوم فى بلادنا على مجهودات الافراد وتضحياتهم .

واما الجانب النفسى فيتجلى فى ظاهرتين :

اولاهما : الكبت الذى يشعر به المثقف ، وهو ليس دائما مفروضا عليه من الخارج ، بل هو فى حالات كثيرة منبثق من ذاته ، اما بدافع مواضعات معينة ، واما بتأثير من عقد ومركبات .

والثانية : عدم امكان المثقف تنفيذ افكاره وآرائه ومثله نتيجة حرمانه من ممارسة عملية التسيير او المشاركة فيها على الاقل .

هنا تطرح قضية جزئية ولكنها اساسية وصبغة فى نفس الآن، وتتعلق بالموقف من السلطة . ولعل الدارسين لم يلتفتوا له وظلوا مركزين على موقف السلطة من المثقف باعتبار فعاليته وتأثيره . ولا اريد ان اثيره هنا فقد سبق لى ان طرحته وناقشته فى غير هذا المجال ، ويمكن القول بأن موقف المثقف المغربى من السلطة يسير فى الاتجاهات الاتية :

اولا : التبعية بالنسبة لعدد كبير ، منهم من يعمل بصدق واخلاص بحكم التزامه الوطنى ، ومنهم من يعمل لمجرد الرغبة فى تحقيق مصالحه بانتهازية واستغلال .

ثانيا : القطيعة عند البعض ، وهو موقف سلبى مدان حين يصدر عن ذوى الكفاية الذين يتخذونه لاختلاف فى الرأى ، ويكاد يكون غير موجود. اما حين يصدر عن العاجزين الذين ليس لهم ما يشاركون به — كما هو الغالب — فهو مجرد تهريج وتوهم وتستر لاخفاء النقص وعدم القدرة.

ثالثا : اللامبالاة ، وهو اكثر سلبية من السابق ان جاز اعتباره موقفا . وهو منتشر بكثرة فى فئات معينة ، وخاصة بين اساتذة الجامعة المأخوذين بالبحث العلمى ، وبين اصحاب المهن الحرة كالمحامين والاطباء ومن اليهم ممن غدوا — كالخبراء الاجانب — يعيشون لمهنتهم وما تدر عليهم من مال ، منفصلين عن الجماهير ومتحللين من اى التزام .

رابعا : الانتقاد الموضوعى ، وهو موقف وطنى وايجابى ، لا شك انه يساعد على التصحيح وعلى اغناء التجارب وعلى طرح المشاكل الحقيقية وايجاد الحلول لها ، وعلى تضييق الهوة الفاصلة بين الممارس والناقد وتقريب مواطن الالتقاء ، فضلا عن كونه ينم عن احساس بالمسؤولية والقدرة على تحملها ، ولكنا لا نصادفه الا عند قلة .

وينتج عن هذه المواقف فى مجموعها ان الثقافة تحافظ حقا على استقلاليتها وتحمى من الذوبان والامتصاص ، ولكنها تنحصر فى اطار

يبعدها — او يكاد — عن المدار العام الذى تتحرك فيه دوالب الدولة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، مما يترتب عنه تقلص فى العمل الثقافى ، لا سيما فى المجالات التى لا يستطيع ان ينهض بها الافراد كالنشر عامة ، وفى نطاق التراث خاصة ، كما يترتب عنه تخلف عن امداد حركة النمو فى البلاد ، بل تخلف حتى عن مسايرتها . وهذا ما يحول دون حضور الثقافة الدائم فى الميدان ، ويجعلها تقنع بدور التوعية والتنوير على اصعدة محدودة ، ولا تؤثر بقوة فى مختلف قطاعات المجتمع ، فضلا عن ان يكون لها دور تغييرى فعال .

اذا وصلنا الى الجانب الفكرى الفينا الغموض والفوضى والسلبية واختلال المقاييس . فالغموض يعتمل فى ذهن المثقف بدءا من تحديد مفهوم الثقافة ، وخاصة حين توصف بالوطنية والتقدمية والثورية ، الى تحديد مهمته فى مجتمعه وادراك ابعاد دوره ومسؤوليته . والفوضى ناتجة عن انتشار العديد من الافكار والمذاهب والفلسفات التى لم نستطع تمييز الفاسد منها والسليم ، وحتى لو استطعنا لما امكننا هضم ما نختار لاننا لا نتصرف بوعى تام . وهذه ظاهرة لا شك انها تبرز بوضوح وقوة ملامح التخلف الفكرى الذى نعانى منه . اما السلبية المتمثلة فى الرفض وفيما يسمى بالغربة والاغتراب والاستلاب — وهى الاخرى شاهدة على التخلف — فلا يمكن ان تعتبر فى مجتمع كالذى ننتمى اليه الا ظواهر مرضية لا تفضى بمن يعانونها الى غير الانفصال عن المجتمع ثم الى اليأس . واما اختلال المقاييس فينسجم تواجده مع بقية عناصر الازمة ، خاصة وقد اصبح من الصعب على اى واحد — نظرا لكثرة المشاكل وتراكمها وتعقيدها — ان يحدد موطن الداء ويحدد المسؤول عنه .

ويبقى الجانب التنظيمى بعد هذا ، ويكشف تحليله عن ظاهرتين خطيرتين : التمزق الفردى والاجماعى ، وعدم الالتحام مع الجماهير . ولعلنا لا نحتاج الى كبير عناء لندرك ان بنية مثقفينا الطبقية والفكرية والخلقية غير متجانسة . والح على جانب السلوك الخلقى الذى يكاد يكون منعدما. فمثل هذا السلوك هو الذى يجعل المثقف ينضم الى غيره ويعانق احلام مواطنيه حتى تتحقق له الزيادة وتتحقق له بهذه الزيادة مستقبليته اى مستقبلية افكاره ومثله . ويكفى ان نجلس الى بعض المنتسبين للثقافة فى لحظات معدودة على رصيف مقهى — وهو المكان الذى يقتل فيه كثير من المثقفين اوقاتهم للاسف — لنسمع الطعن فى الاخرين ، والرفاق والزملاء خاصة ، وتصنيفهم الى تقدميين ورجعيين وغير هذه وتلك من الاوصاف التى لم يعد لها اى مضمون ، ولنرى كيف يكون نقد هذا الانتاج او ذاك ، وكيف يتم اصدار الاحكام القاطعة عليه دون قراءته والاطلاع عليه ، ثم لنستمتع بحديث هذا المثقف عن نفسه معتقدا انه نسيج وحده

وانه رائد التجديد وزعيم مدرسة فى الفكر والادب . وتزيد هذه الانا تضخما عدة اذا كان قد سبق لـه ان نشر .

والمثقفون عندنا مختلفون على عدر اصعدة :

- التكوين العلمى نوعا ودرجة .
- الانتماء الطبقى
- الاتجاه السياسى
- النظر الى الماضى
- تحايل الواقع
- التنبؤ بالمستقبل
- تقدير الصالح العام
- المصالح الخاصة

ويبدو انه انطلاقا من النقطة الاخيرة تتحدد كل نقاط الاختلاف الاخرى ، سواء ما ذكر ام لم يذكر . ونستطيع ان نميز فى صفوف المنتسبين للثقافة هذه الفئات :

اولا : فئة الذين يقراون ويكتبون ويعملون فى صمت . وهؤلاء — وفيهم شيوخ وشباب — ينفقون وقتهم وصحتهم ومالهم فى سبيل خدمة ثقافة أمتهم ، ايمانا منهم بهذه الامة ومستقبلها . ثم انهم جبلوا على هذا العمل فهم لا يتأخرون عنه ولا يتقاعسون ، على الرغم من العراقل والعقبات ، وعلى الرغم من المثبطات التى ابسطها ان احدا لم يعترف لهم.

ثانيا : فئة الاساتذة الجامعيين ، ومنهم :

1 — علماء يحملون اعلى المؤهلات ، بعضهم يعمل كمثقفى الفئة الاولى فى تضحية وصبر وصمت ، واغلبهم لا يعملون الا فى حدود ضيقة، ويكاد انتاجهم يكون محصورا فى تهيء دراسات اكاديمية لا ترى النور الا فى النادر .

2 — قوم ساقهم القدر الى الجامعة ، وهم غير مهيئين لها ولما تقتضيه من تكوين فكرى وبحث علمى ، فضلا عن المؤهلات . وقد اتيح لبعضهم أن يحصلوا على اعلى المراتب الجامعية بدون حق وعن طريق الحظ الذى يستره ظروف المرحلة الانتقالية .

3 — شباب يبذلون او يبذل بعضهم جهودا صادقة ليكونوا فى مستوى المسؤولية الجامعية على الرغم من الظروف التى يعانون منها — ماديا ومعنويا — والتى من شانها ان تبعث فى نفوسهم اليأس .

ثالثا : فئة الصحافيين ، ولست اعنى كل من يعمل فى ميدان الصحافة العظيم فى قدره ومسؤوليته ، وانما اعنى من يشارك منهم فى مجال الادب والفكر . وعلى الرغم من انهم يغنون هذا المجال بكتابات قد لا تخلو من قيمة ، فان بعضهم بحكم تحزبهم وتصرفهم فى صحيفة

ينصبون انفسهم زعماء للفكر والثقافة والادب ، يقولون ما يشاءون ، وينشرون ما يروقهم ويتحدثون عما يعجبهم وعمن يوافقهم ، ويفتحون الباب للاخرين او يوصدونه حسب الهوى وميول النفس وتوافق المصالح او تضاربها . والغالب على هؤلاء انهم لا يقرأون وان ثقافتهم مخطوفة بارتجال ، وفى احسن الاحوال من جريدة او مجلة تأتى من هنا او هناك، بالاضافة الى انهم لا رصيد لهم من مؤهلات الا فى النادر وبالمصادفة . ثم هم فى النهاية مرضى بالنجمية ومصابون بمركب الشهرة والعظمة .

رابعا : فئة الشباب ، وفيهم طلاب ومدرسون ، وهؤلاء يقرأون الانتاج الحديث والمعاصر فى الغالب ، ويتأثرون به ويتحمسون له ، ويروجونه فيما بينهم باندفاع ، وربما يحاولون تقليده . وقد يتغير اتجاه قراءتهم فيتغير تبعا له اتجاه تفكيرهم الى حد التنقل بين المذاهب المختلفة وهم بهذا وبحكم حداثة سنهم وتجربتهم وانعدام التوجيه السليم ، سواء فى مؤسسات التعليم او خارجها ، ثم بحكم قلة اتصالهم بالتراث العربى والانسانى ، يعيشون اكثر من غيرهم أزمة بلبلة الفكر ويعانون اضطرابه وفوضاه .

نستخلص من هذا أننا ـ نحن المثقفين ـ بحاجة الى ان نقوم بنقد ذاتى حتى يمكننا ان نقوم بتحويل داخلى يلم صفوفنا فى تكامل وتجانس ، وليتسنى لنا بعد ذلك ان نجرى عملية التحويل فى المجتمع .

وتوحيد الصفوف لا يعنى الانصهار الكلى المطلق ، ولكن يعنى الاتفاق على حد ادنى من المقولات والمفاهيم والمواقف . وهو مطلب طالما طرحته بالحاح فى اطار اتحاد الكتاب للخروج به من الازمات التى اعترضته ، والتى انتهت به الى الاختناق فى طريق مسدود .

واذا كنا مشتتين غير قادرين على ان نلتحم مع انفسنا ، فانى اتساءل بخجل : كيف يمكننا ان نلتحم مع الجماهير ؟ وكيف يمكن ان نكون منتجين وفعالين ؟

عباس الجرارى